الأدب وتطوّره في جبل عامل*

بقلم الشيخ علي الزين

توطئة

الحق لا يعرف صداقة ولا عداوة . ولذا كان على الباحث النزيه ان يتحلّل ، في ابحاثه واحكامه ، من اثر العواطف على نفسه ، ليخلص من ذلك للحق والجمال الذي ينشده ، ويرضي وجدانه وادبه ، وينصف صديقه وعدوّه ؛ والّا كان مغرضاً في احكامه ، شاكّاً في مثله العليا . وانني ينازع من هذه النية ، ويدافع من هذا الاعتقاد ، اتوجّه للبحث عن تطور الادب العاملي متحدّثاً لابداء رأيي في ذلك ، لا اخاف في اطراء ما يستحق الاطراء منه أن أتّهم في انصافي وتجرّدي من عواطف الصداقة والمودة ، ولا اخشى في نقد ما يستحق النقد منه ان يُشكّ في اخلاصي ونزاهتي من شوائب الجهل والضغينة ؛ كما انني لا ادّعي العصمة في احكامي ولا الاحاطة في علمي واختباري .

۞

« على شاطئ هذا الابيض ، وامام مجد التاريخ الماثل في انقاض صيدا وصور القديمتين ، نهضت بقعة صغيرة منفردة من بقاع الشام قد نظمها الله آكاماً متماسكة تتسامى الى العلاء رويداً رويداً كلما امعنت في الابتعاد عن الشاطئ نحو مطلع الشمس ، تلك هي جبال عاملة التي يعرفها الناس باسم جبل عامل » .

وجبل عامل هذا العربي الصريح في نسبه ، والشيعي القديم في ولائه لاهل بيت الرسول ، لم يكن له فيما مضى وجود سياسي مستقل ، إلا في بعض

* دراسة قُدّمت الى معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف (فرع الادب العربي) .

العهود الاقطاعية ، ليكون له من ذلك تاريخ مستقيم الحدود عالي الدعائم يجوز للمتذ بوجدانه منا ان يعوّل عليه ويطمئن الى فحواه .

وانما كل ما يمكننا ان نفخر به من السياسة في ذلك العهد الاقطاعي المظلم ان ساستنا استطاعوا ، اثناء تلك الفوضى الهدامة والعدوان الغاشم ، ان يدافعوا عن كيانهم في كثير من المواقف السلبية ، بما تهيأ لهم من تيقّظ روح النجدة والحمية في امتهم المضطهدة ، وان ينقذوا بلادهم وأعراضهم من خطر النهب والقتل ، وما الى ذلك من انواع العسف والتدمير .

اما ان ساستنا استطاعوا ان يسيطروا على من حولهم من البلاد والمقاطعات المناهضة لهم ، او حاولوا ان يفرضوا ارادتهم على من سواهم من الحكام والجيران ، كما كان يفعل ارباب الحول والطول من السادة والقادة ، فذلك شيء لم يكن له في تاريخهم أثر يذكر او شاهد يؤثر من ايامهم المعدودة ومراقيهم المشهودة ، وإلّا لما كانوا في عنفوان يقظتهم تخلوا عن صيدا — وهي حاضرة بلادهم — للشيخ ظاهر العُمَر ، وهو انما راضَ جامحها بقوتهم واحتلّ منيعها برجالهم يوم أجلوا عنها الوالي درويش باشا ، وهزموا جند الامير يوسف شهاب .

ولكن التاريخ العاملي المجيد الذي يحقّ لنا ان نفاخر به وان نطاول عواصم البلاد السورية والعربية اجمع في تلك الفترة التي تخلف بها كل علم وادب ، وانضوت كل ثقافة وحضارة في دنيا العرب والاسلام ، هو تاريخهم العلمي والادبي الحافل بروائع الاخيلة والافكار والاساليب البيانية .

مجمل الحالة الادبية قبل الجزار

واذا كان من الصعب على الباحثين اليوم تقويم هذا التاريخ وتوضيح حدوده ومعالمه بغير ان يوزعوا مجراه ويقسموا فصوله الى عهدين : العهد الذي تقدّم حملة احمد باشا الجزار (سنة ١١٩٥هـ=١٧٨١) ، والعهد الذي تلاها واستمرّ الى هذه الساعة . فان العهد الذي تقدّم حملة الجزّار لا يمكننا من التوسع في تفصيل ادواره وتحديد شخصياته وطبقاته على ما يجب ، لبعد العهد ، وقلّة المصادر الكافية ، واندثار الكتب العاملية في زعازع تلك الغارة المشؤومة ، إلا ما ندر من الكتب التي سلمت

من النيران ، وتعدّت جبل عامل في عصرها الى غيره من البلدان الشيعية ، كالحلة ، والمدارك ، والمكاسب ، والمعالم والرسائل ، وأدب المفيد والمستفيد ، وأمل الآمل ، والخلاصة ، والصدية ، والكشكول ، والمخلاة . وما الى ذلك من نفائس علمية وادبية لا تزال الى يومنا هذا أوثق مصدر واعذب مورد لطلّاب العلم والادب في مدارس الشيعة ، وفي سائر معاهدها العلمية على اختلاف اللغات وتنوّع الامصار والبلدان .

وقد يكون في هذا النموذج من نسيب الشيخ محمد بن محمود العاملي المتوفى سنة ١٠٩٠ هجرية (١٦٧٩) .

قف بالمنازل ، حيث اوقفك الهوى ، وكلِ البكاء الى الهام السيفِ ؛
اني غسلت من الدموع انامليَ ، ومسحت من اثر البكاء كفوفي .
وقفت بي الوجناء بين طلولهم ؛ لولا سكان الربوب ، طال وقوفي ؛
ارتاد في عرصاتهنّ كأنني طيف الَمّ بناظرٍ مطروفِ ؛
فسألنَ حتى لا يجبنَ سائلي ، وعجبنَ حتى لا يرينَ عكوفي .

وفي هذا المثل من حنين الشيخ ابرهيم يحيى الى عاملة ، وقد طرح به الحنوف من فتك الجزار الى دمشق الشام .

من لي برد مواسم اللذاتِ ، والعيش بين فتى وبين فتاة ،
ورجوع ايام مضينَ بعامل بين الجبال الشمّ والهضباتِ ،
والشمل مجتمع ، واخوان الصفا احنى من الآباء والأمّاتِ ،
والروض افيح ، والجناب ممنّع ، والورد صافٍ ، والزمان مُواتي ؛
اذ لا ترى الّا كريمًا كفه ، والوجه عين حيًا وعين حياةِ ،
تختال في المغنى الرحيب ضيوفه ان الكرام رحيبة الساحاتِ ؛
او عالما حبرًا ، اذا خضخضته حشد المحيط عليك بالغمراتِ ،
واذا اقتبست النور من مشكاته ، اهدى اليك البدر في الظلماتِ ؛
او شاعرا ذرب اللسان تخاله قحطًا ترعرع في اوان الياتِ ،
يأتي بكل غريبة وحشيّة نشأت مع الآرام في الفلواتِ .
ويصوغ كل بديعة حضريّة مصقولة الجنبات كالمرآةِ .
لهفي على تلك الديار واهلها ، لو كان تنفع لهفتي لهفاتي !

. . .

خطب دعاني للخروج من الحمى فخرجت بعد تلوّمٍ وأناةِ ،
وتركته خوفَ الهوان ، وربما تُرك النسير مخافة الهلكاتِ .

قد يكون في شعر هذين الشاعرين ، وفي ديوان عبد المحسن الصوري ، وديوان الشيخ ابرهيم الحاريصي ، وفي الكشكول لبهاء الدين العاملي ، او فيما ورد في كتاب سلافة العصر لابن معصوم من آثار بعض ادبائهم وتراجم بعض علمائهم ، ما يكفي لتمثيل أدبهم وثقافتهم في تلك العصور الخالية .

لذلك نجتزئ عن الشرح والتفصيل باجمال الاشارة الى هذه الآثار القيّمة ، والى ما بقي من اطلال المدارس في ضواحي القرى العاملية ، فهي خير شاهد على ما كان للعامليين من امتياز علمي وادبي ، او على مقدار تفوقهم — مع ضعف حالهم الاقتصادي واضطهادهم السياسي — في ذلك العهد القاتم . ولعل في مطالعة كتاب « امل الآمل في علماء جبل عامل » ، طبع ايران ، وما بعده هناك من علمائهم ومؤلفاتهم ما قد يزيد القارئ استبصاراً بعظمة جهود العامليين الأول وباتساع ثروتهم الفكرية ، وخصوصاً في العلوم الدينية .

الادوار الثلاثة

هذا واما العهد الذي يلي حملة الجزار فهو العهد الذي يمكنك ، اذا تدرّجت مع تاريخ ادبهم ، وتتبعت مظاهر الحركة الفكرية في هذه الحقبة منه ، ان تقسم حياة الادب فيه الى ثلاثة ادوار . دور الإحياء والبعث ، دور التطوّر والانتقال ، دور التجديد والترف الفني .

دور الاحياء والبعث

عندما استيقظ العامليون من غشيتهم على اثر تلك الصدمة العنيفة ، ورأوا ما قد اصاب جامعتهم من تشتيت ، وما نزل بساحتهم من بلاء ، وحاق بهم من ضعف وفقر ، وما قد مُنُوا به من فقد علمائهم وادبائهم وقادتهم نفياً وقتلاً وتشريداً ، ومن اندثار مكاتبهم وتلاشي آثارهم حرقاً ونهباً وتداعياً بيد البلى[1] ، راعهم هول الموقف واكظهم بعد الشقة ما بين حاضرهم وماضيهم ،

---

١) يُروى أن مكتبة آل خاتون في « جُبَيّا » — وكانت تشتمل على خمسة آلاف مجلد — قد ذهبت كلها طعمة للنار .

فتوانبت لذلك بقايا العواطف المكبوتة جزعاً وخوفاً ، وشظايا القلوب المتقدة غيرة وحمية ، وهب الجميع يعملون على توحيد الشمل ، ورأب الصدع ، وترميم ما درس من اطلال ، واحياء ما سلف من عهود علمية وادبية . وكان لهذا الاتجاه صداه فيما بعد ، واثره في تأسيس مدرسة الكوثرية ، ثم مدرسة جباع ، ثم مدرسة خنوبه ، ثم مدرسة بنت جبيل ، ثم مدرسة النبطية ، ثم مدارس انصار ، وشقراء ، وعيتا .

وكان لهذه المدارس ، مع تعاقب الرحلات العلمية الى النجف ، وتأثر المهاجرين منهم بالثقافات النجفية والآداب العراقية ، نتائجها القيمة في توجيه الافكار نحو الحياة العلمية ، وعملها المؤثر في احياء الروح الادبية ، وترطيد الأسس لهذه النهضة المباركة ، التي قام بها اولئك اللامعون من ادباء هذا الدور ، وعلماء ذلك الجيل ، كالشيخ علي زيدان ، والشيخ ابراهيم صادق ، والشيخ علي السبيتي ، والشيخ عبدالله نعمة ، والشيخ محمد علي عز الدين ، والشيخ موسى شراره ، والسيد محمد علي ابراهيم ، والسيد حسن يوسف ، والشيخ محمد سليمان ، والشيخ محمد حسين شمس الدين ، والشيخ موسى مغنية ، ممن رفعوا لواء النهضة العلمية والادبية في هذه البلاد ، وأحيوا عهداً زاهراً تغلبوا فيه على مقتضى العوامل الهدامة التي اوشكت ان تجتاح اللغة والعلوم والآداب العربية في مثل بيئتهم وفي مثل طائفتهم . ولو انه تسنى لهم ما قد تسنى لغيرهم في هذا العصر من الاتصال بمثل معاهد اليسوعيين والاميركان ، واستخدام مطابعهم ومكاتبهم وتنوع ثقافتهم ، الى كل ما يغذي المطامح العلمية والفنية ، لكان لهم في عالم النهضة الفكرية والادبية اثر غير هذا الأثر وشأن غير هذا الشأن . وبرهاننا على صحة هذا الزعم نبوغ السيدة زينب فواز العاملية ، صاحبة كتاب الدر المنثور ورواية حسن العواقب ، عندما ذهبت الى مصر واتصلت بمثل هذه البيئات العلمية ، ثم نبوغ حسن كامل صباح مؤخراً في دنيا العلم والاختراع ، عندما تهيأ له من معاهد اميركة ومختبراتها ما ساعده على تحقيق احلامه واختراعاته .

ما يمتاز به الادب في هذا الدور

اما الشعر في هذا الدور فانه قد أدّى رسالته كاملة ، او كالكاملة ، لا يشوبها غير اختلاف الغرض من الشعر اليوم عن الغرض منه فيما قبل ؛ اذ لم يكن همّ الشاعر وغايته من نظم الشعر الا التقليد والمحاكاة لمن تقدمه من اعلام الشعر في الفكر والخيال والاسلوب ، واذ كان الشاعر اذا اراد ان يمدح او يذم او يتغزل او ان يصوّر افكاره ، ويعبر عن عواطفه على تلونها ، لا بد له من امثلة شعرية يحتذيها ، وصوَر بارعة يعكسها ويولّد منها ابياته وقصائده ، ويؤلف انغامه وانشيده . فاذا اراد مثلًا ان يرثي ، نظر أولًا الى من يتأثره من المتقدمين كيف كان يرثي ، وبأي اسلوب ، فاذا رآه يبتدئ بالتفجع والتهويل وتعظيم المصاب ، ثم يتخلص الى مآثر الفقيد ومحلّه من قومه ، ثم إلى التعزية ببقاء آله وذويه ، وربما يتوسم بهم من برّ ونجابة ، ابتدأ صاحبنا وتخلّص وانتهى على هذا النحو . واذا رآه يبتدئ بالحكمة والموعظة ، وينتهي بالترحم والاستغفار للفقيد والاستسقاء لجدثه ، كان ذلك كذلك حذو النعل بالنعل . وهكذا كانوا في أي موضوع ، وفي أيّة مناسبة ينظمون بها ، لا بد لهم من دليل يرشدهم وقائد يقودهم الى الاسلوب والخيال الذي يختارونه لعرض افكارهم وإظهار مجاملاتهم وعواطفهم . وانما الجواد الجواد منهم من كان يستطيع ان يجري في مضاف قادته وادلائه ، او كان يوسعه ان يسبقهم ، او يستقل عنهم في بيت او ابيات يختلسها من اختلاف المواضيع والظروف وتفاوت الاذواق والافكار .

الادلة على ان الغرض من الشعر هو التقليد

ولست في حاجة الى اقامة الدليل على مثل هذا الزعم . فالادلّة كثيرة متنوّعة . ونظرة بسيطة الى الآثار الادبية ، الباقية كدواوين آل يحيى ، وآل فضل الله ، وآل مروّه ، وآل شمس الدين ، ثم نظرة اخرى الى آثار من تقدمهم كأبي تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، والرضي ، وشعراء الاغاني ، ومعاهد التنصيص ، والسلافة ، يتضح لك واقع الامر ، ثم ينكشف الغطاء عن تلك الصلة القوية والتشابه القوي بين الاساليب وبين الاخيلة والصور ، وربما كنت

على شيء من الحق اذا قلت بين الكثير من مفردات المعاني والالفاظ حتى في المواضيع الشعرية الجديدة التي لم يطرقها غيرهم من المتقدمين .

النماذج الشعرية

واليك شاهدًا على ما اقول هذه القطعة الشعرية لشاعر كبير من شعرائهم البلغين ، اراد ان يطلق براعته في المواضيع الجديدة ، ويصف القطار ، فاذا به يصف الناقة .

تتجارى والفكر في أمد السير ، فتحتاز غاية الافكار ،
شقت للحديد خطين ، واسات فحاطت صحاصحًا بصحاري ،
نزعتها وماقها أيّ سهم بَرّ بغلي ، فوق الاوتار ،
مارقًا في حشاشة البيد ، تكبو دلمًا عنه لمحة الابصار .
منت بَرٍّ لا قارض وعوان ، هي بكر من اعظم الابكار !
نشأت ذات صبوة وغرام بنطاق الفلا ووصل القفار
واستشاطت تنيظًا وزفيرًا وسمت بالصدى فضا الاقطار .

فانظر اليها ، على ما بها من براعة السبك ، ومتانة التركيب ، وصفاء الديباجة ، هل ترى ، بعد تجريدها من ذلك العنوان ، او تحريرها من تلك الجملة « شقت للحديد خطين » ، غير وصف عامّ من اوصاف الناقة ، على ما كان يصفها به المتقدمون من أعراب البادية والضاربين على وتيرتهم من المتأخرين !

ثم انظر الى هذه القطعة الثانية التي اراد بها وصف الباخرة :

كلما زجّها بجذب ودفع مارجٌ في فؤادها من نار ،
فتحت للخضمّ عينًا ، ومرّت بين اجفانها خيال ساري .
فخر اليمّ في جماجم صدر فترى الماء حولها كالسوار ،
كلما اثلمت مناحير موج نهرتها بكلكل بتّار .
واذا الريح جمّدت وفرات الغمر ، هبّت تفلي جمود الغمار .
تتخطى متاكب اللجج الشمّ ، على طولها ، بأيد قصار !
هي ، عجزًا ، قطًا ! وقُنفذ ، نامٌ ! وجناحًا ، فيجٌ ، وصوتًا ، قاري !
بنت بحر تخلقت من سجاياه بخلقي خلاعة ووقار !
في ارمي ، اذا رمى ، من نير ، ليس يدري جرت ام الماء جاري !
وأوانًا تختال تيهًا ورقصًا ، وفق تصفيق موجه التيّار ،
فاذا صوّبت تغُصّ لتخوم الارض ، او صعّدت تعُلّ السواري .

افلا ترى ، وانت تقرأ هذه الابيات ، ان هذه المعاني التي حشدها هي بنسبتها للناقة أروع واصدق منها بنسبتها للفلك ، وخصوصاً اذا جاز لنا ان نبدل هذه الالفاظ التي حوّرت بها معاني الناقة لتكون وصفاً للفلك او جاز لنا ان نضع :

« اروعٌ من حداتها الابرار » مكان « مارجٌ في فؤادها من نار » في البيت الاول .

وان نضع لفظة « السراب » مكان « الخضمّ » في البيت الثاني .

و« الافق » مكان « اليمّ » و« الآل » مكان « الماء » في البيت الثالث .

و« الحقف » مكان « المرج » و« برخدها » مكان « بكلكل » في البيت الرابع .

و« القفر » مكان « الغمر » في البيت الخامس .

و« القفن » مكان « اللجج » في البيت السادس .

و« البر » مكان « البحر » في البيت الثامن .

و« النقع » مكان « الماء » في البيت التاسع .

و« شيحه والغار » مكان « موجه التيار » في البيت العاشر .

ثم ما لفظ « اتلمت » وما كلمة « المحير » وما كلمة « النحر » وما كلمة « الكلكل » في قوله :

كلما أتلمت مناحير موج ، غرقا بكلكل بتار

وهل هي الا من خصائص الناقة . . . وكذلك « تتخطى بأيد قصار » في قوله :

تتخطى مناكب اللجج الشمّ ، عن طولها ، بايد قصار

وكذلك الزجّ والجذب والدفع في قوله « كلما زجها بجذب ودفع » .

ثم التيه والرقص والاختيال في قوله « وأوانا تختال تيهاً ورقصاً » .

وعلى هذا النحو يستطيع الباحث المدقق ان يمضي في استعراض هذه القصيدة الرائعة من اولها الى آخرها ، فلا يجد فيها اثراً للحرية والاستقلال ، الا بما شذّ من ابيات قليلة افترضها على الشاعر افتراضاً اختلاف الموضوع وتغاير الظروف ، ولذلك لم يكن فيها كشاعر ملهم متيقظ الفكر ، متوثب الخيال ، وانما كان كمحدّث عادي ينقل اليك ما يراه بايسر صوره وابسط مظاهره ، او يحمل عليه

صوراً متكلفة معتسفة لا يستسيغها الذوق الفني ، ولا تقرّها طبيعة الموضوع والحقيقة المرئية في الخيال . ثم بعد هذا كله ، سَلْ نفسك عن السبب الاول والعلة الوحيدة في ذلك ما هي . . . أنقص في فطرة الشاعر ام ضعف في ملكاته الفنية . . . ام قصور في لغته وبيانه . . . ام هو محض التقليد . . . او سل بيئته العامة والخاصة وثقافته العاملية والنجفية وما فطر عليه ابناء ذلك الجيل من تقديس الاجداد والتقيد بامثال قولهم « هل غادر الشعراء من متردم » و« هل ترك الاول للآخر شيئاً » ، تجبك هذه كلها مختلفة مؤتلفة بافصح بيان ، واصدق حجة ، انه التقليد والتقليد الطبيعي في هذه الطبقة من شعرائنا .

التخميس والمعارضة والتشطير

ومما يؤكد لنا ذلك الزعم ما كانوا عليه من افتنان بالتخميس ، والتشطير ، والمعارضة ، وما اشبه ذلك من الاساليب التي يدور بها الناظم حول غيره من الشعراء ، ويتأثر خطاه خطوة خطوة . فقد كان الشاعر منهم الى الامس القريب يترقب فرصةً للنظم بظهور قصيدة او بالعثور على ابيات تثير إعجابه او تبعث نفسه ليشطرها او يخمسها او يعارضها ، وما عهدنا بالقصيدة الافريقية :

مهلا ، على رسلك ، حادي الأينق ، ولا تكلفها بما لم تطق !

او بخالية بطرس كرامه :

امن خدها الورديّ أنتك المالُ ، فحجَّ من الاجفان مدمعك الخالُ !

او بتوشحات السيد محمد سعيد حبوبي ، او بقصيدة ابي الحسن التهامي .

يا ليل الصبّ متى غده؟ وقيام الساعة موعده !

ببعيد ، وقد تسابق في معارضتها اكثر من شاعر من شعرائنا الكبار كالشيخ ابراهيم صادق ، والشيخ محمد حسين شمس الدين ، والشيخ عبد الحسين صادق ، والسيد عبد الحسين نور الدين .

طرائقهم في الجدل والنقد

وقد يكون اشد تأكيداً واوضح دلالة على مذاهب الادباء في ذلك المهد طرائقهم في الجدل ، وتمييز صحيح الشعر من فاسده ، تلك الطرائق التي اوشكت

ان تنتهي في قولها الفصل إلى المقارنة بين قديم الشعر وحديثه ، فما كان له مبرر ومشبه من القديم اقروه وصوبوه ، وما لم يكن له شيء من هذه المبررات شكوا في صوابه او لج بهم الجمود الى طرحه وانتباذه .

واليك شاهداً على ذلك ، ما يرويه الثقاة من اختلاف العلامتين السيد علي محمود الامين والشيخ عبد الحسين صادق ، في مأتم العلامة السيد محمد نور الدين ، على بيت من الشعر يدعو بـه الشاعر آل الفقيد ان ينكسوا العلم وينفضوا الاكف يأساً من المجد والفخار بعد فقيدهم ، ومن ان الحجة المعتبرة والكلمة المسموعة بين ذلك الحفل المكتظ بالأفاضل من اهل العلم والادب انما كانت للذي استطاع ان يستشهد على جواز ذلك المعنى وصحته من الشعر القديم بمثل قول مهيار رائياً ومعرضاً :

أفريشُ ، لا لفـ أراكِ ولا يدٍ ؛ فتواكلي ! غاض الندى ، وحلى الدى !
خولت فانتفتي باوقصَ ، واسألي مَن بزَّ طهرك وانظري من اوعدِ ،
وعي الذحول فلستِ رائد حاجة تقضى بعاسور ولا بمنـدِ ،
خلّاك ذو الحسبين انقاضاً ، متى تجذب على ظهر المذلة تنقدِ .
قسر الدنا ، اضحت سماؤك بعده ارضاً تداس بحـافر ويمنـدي ؛
فاذا تشادقت الخصوم ، فلجلجي ؛ واذا تصادمت الكماة ، فمرّدي .

اما الاعتداد بالذوق الفني ، ومراعاة المقام ، وانه مقام تعزية ورفق وتكريم لا يليق به من شاعر حساس ان يتعرض للمعزّى من آل الفقيد بما يضعف رجاءهم ويقلّل من هيبتهم ويجردهم من كل كفاءة ، بدلاً من ان يخلق لهم بخياله جواً فسيحاً واسعاً من الاحلام والاماني المنعشة ، ومحلاً سامياً مرموقاً من الثقة بمستقبلهم والاطمئنان الى حزمهم ونشاطهم ، اما ذلك وامثال ذلك فلم يكن له من نفوس الحاضرين اي عناية واي التفات .

ابلغ عوامل التقليد

وربما كان من اقوى البواعث على التزام هذه الخطة التقليدية ان اصحاب الكفاءات والمواهب الفنية منهم لم يتهيأ لهم ان يتخذوا الشعر والادب غاية لذاتها او ينصرفوا بهما الى المراضيع الفنية البعيدة عن سلطان العرف والتقاليد

الجائرة ، ويتكلموا فيما ينشرون على افكارهم وعواطفهم ويجاهروا بها في شعرهم وبيانهم . وانا كانوا مضطرين بحكم الظروف السياسية والتقاليد الثقافية الى مراعاة الشائع والمألوف من فكرة وعرف واسلوب ، ثم الى جعل الشعر والأدب وسيلة لتحقيق اغراضهم الاجتماعية وأداة مصطنعة لقضاء حاجاتهم الضرورية او رفع المسؤولية عنهم في الحفلات والمناسبات والمجاملات الوقتية .

الخصائص المذهبية في شعرهم

ثم اذا كان هنالك شيء آخر يميزهم عن غيرهم من ادباء سورية ولبنان في هذا الدور فهو تأثرهم الى حدّ بعيد بكل ما له صلة وثيقة بتاريخ المذهب الشيعي ، اذ قلّما تجد لهم مجموعة ادبية او ديوان شعر قد خلا من وحي العواطف الشيعية المحتدمة ، عواطف الحب لآل بيت الرسول ، او عواطف الحزن والرثاء لما ألمّ بهم من حيف وظلم ، او عواطف الحماسة والثورة على مغتصبي حقوقهم ومضطهديهم من الساسة ، مع التعمق في الاستدلال على صواب الخصائص المذهبية وعلى خطأ مفنديهم . وانه ، وان كان في ذلك شيء من التقليد لشعراء الشيعة الاولين كالكميت ، ودعبل ، وابي تمام ، وابن الرومي ، او الرضيّ ، ومهيار ، او ابي فراس وامثاله ، فليس في الامر من شكّ في انه كان يمثل اصدق عاطفة منهم واقوى عقيدة في نفوسهم . ولعلّ اصحّ نموذج لهذا الادب ديوان الشيخ ابراهيم صادق ، والقصيدة الغديرية للشيخ محمد حسين شمس الدين .

ولكنه على ايّ حال يمكننا ان نقول ان شعراءنا المتقدمين ، بذلك اللحاظ وبذلك القياس ، قد أدّوا رسالتهم بحكمة الاصول متنوعة الفروع ، واخذوا بحظهم الارفى من احياء الادب العربي القديم والاحتفاظ بمذاهبه واساليبه وجماله البدوي التليد . ولعلّ اصدق نموذج لأدبهم وشعرهم هذه القطعة من شعر الشيخ محمد حسين شمس الدين .

على الدار من سلمى بذي الأثل ، سلّموا ! وهل تنطق العمياء او تتكلّمُ !
قفوا بجانبها قليلاً ، لعلّني أداوي الحشا من زفرة تتضرّمُ .

دعوني اجيل الطرف في عرصاتها قذىً ، وفي آياتها اتوسّمُ ؟
اناشدها عنهم ، متى عنك قوّضوا ! وفي أيّ وادٍ بعدك اليوم حيّروا ؟
وثُمّتَ على الآكوار ، خصٌ من الطوى ، سروا يجبطرن السير ، والليل مبهمُ ،
خفافٌ على الاقتاب ، إلّا حلومهم : وان وقذهم نسة السير ، هوّموا .
ينصّرن في الليل البهيم قلائصاً لها ، من ذميل السير ، ورد ومطعمُ ؟
اذا ركبوا ، طارت بهم عزماتهم ؟ وان قارعوا ، فالحمد كسبٌ ومغنمُ ،
مذاويد لا خفوا لروع حلومهم ، وان عرموا يوماً على الروع صبروا ؟
وكلٌّ له في ذروة النجم غاية ، على احم في ظلمة الليل انجمُ .
يمسّح عن اعطافه سنة الكرى ويغضي على اللذات . والناس نومُ .

حالة النثر الفني

واما النثر الفني فقد كان ضعيفاً متخلفاً ، يسهب في العبارة ولا يفصح ، ويجمل في الاشارة ولا يبين ، ويكثر من الجمل المترادفة والاستطرادات البعيدة بدون نظام ، ولغير مناسبة قوية توجب ذلك سوى الحرص على رصف الالفاظ والاستفاضة من معاني البديع وسوى المبالغة في الوصف والتهويل والاسهاب بما لا يمثل شعور الكتاب وآراء المنشئين ، وانما يمثل تكلفهم او تملقهم ورغبتهم في ارضاء المخاطبين وتقليد المتقدّمين كما يبدو من بعض الرسائل المخطوطة ، ومن كتاب « الجوهر المجرّد » للشيخ علي السيتي في شرح قصيدة علي بك الاسعد ، ومن خطبة الشيخ محمد علي خاتون في تأبين الزعيم حمد البك . ولعلّ الاغراق في التسجيع والترصيع والجناس والطباق الى غير ذلك من المحسنات البديعية اظهر مميّزات هذا النثر .

واليك هذه الجملة النثرية للأديب الفاضل الشيخ علي السيتي من مقدّمة كتابه في شرح قصيدة الزعيم الموسى اليه ، نموذجاً لنثرهم :

« ان الادب مهما خمدت ناره ، ونبت شراره ، وسدلت استاره ، حتى تشابه ليله ونهاره ، فما زال علماً قد رفع مناره ، وجلّ اعتباره وحمدت آثاره ، ومدحت سماره وكملت اثاره ، وتعالى مقداره ، سيما ان شنع بالتاريخ نكاته ، ومزجت بالنابر اشاراته ، ووشحت بالوقائع فقراته ، ورصعت بالفرائد ابياته وبالغرائب ابياته ، وتحلّت بالعقود المنظومة لبّاته . ولكم حاولت منه ابراز بدره وكشف سجاف خدره ، فارافي كالفرخ يروم نهوضاً فيقع ، او كالكسير يشتدّ لحاقاً فيرجع ، فأغضي جفني ارتماساً واجرع ريقي اغتماساً ، فكم سودة طرحتها من غرائب انتاجه ، وفريدة نبذتها مذ يمين الحائك ، وجوهرة جانبتها معاينة

الطامث ، حتى علقت كفي بالدر النضيد والعقد الفريد والجوهر المنظوم سلك القصيد ، الكلمة التي كادت ان تكون معجزة الايام وكنز الحاضر للايام ، لا جرم ان ناظمها ملك الفصاحة فاعتقها ، وجمع مكارم المحامد فاطقها ، فاذا ترى نسيبها ارق من نسيم الصبا ، وألين من عطور زهر الربى ، وأزكى أرجاً من قيصوم القطيف ، وابعد مراماً من دعوى الشريف ، حتى اذا برقت بالافتخار رواعدها ، وتالت بالايام الغابرة جدائدها ، اعطرت المزن ورعفت ، وائلمت السيوف والسنان قصفت ، فأنت فيها ما بين روض اريض ، وزهر غضيض ، ومنعة صياص وشدة دلاص ، وان حدثت عما مضى حاكت بالفحول خدر ، والاسود تكشر ، والسهري يهور ، والهندي يصور ، والبارود يرعد ، والنار تحرق ، والفرسان تدعي والشجعان تتكئى ، وبوادر الخيل تخطر ، وبواتر السيوف تقطر ، بينا انت في غض ناعم ، وطير ناغم ورذاذ ساجم ».

فهل ترى فيها من اثر البيان غير ما تراه من سجع متكلف واغراق زائد يبعد القارئ الحصيف عن الايمان بصحة المعنى وصدق الوصف ، ولا سيما اذا اطلع على اصل القصيدة المشروحة وعرف ان المختار منها لا يعدو عما تتضمنه قصص الزير وتغريبة بني هلال من شعر ركيك الاسلوب ، سطحي المعنى ، لا يدل على اكثر من كون صاحبه ساميا في فطرته ، بسيطاً في معارفه ، متأخراً في نظمه عن درجة اولئك المعاصرين له من نوابغ الطائفة وشعرائها ، كما يبدو لك في هذه القطعة المختارة من تلك القصيدة المعنية في الشرح والتفسير :

نموذج من فخرها وحماستها :

سموت بآباء كرام ، شعارها ... بناء المعالي حيث كيوان ساطعُ ؟
لهم شرف يسمو على هامة السُّهى ، ... ومجدهمُ فوق المجرَّة طالعُ .
همُ القوم من عليا نزار ، وطنهم ... نقاء البيض الرقاق القواطعُ ؟
همُ مهدوا من عامل كلَّ صعبة ، ... وهم شيدوها ، والرماح شوارعُ ؟
وهم ورثوها بالصوارم والقنا ، ... وفي هممٍ تندكُّ منها القوارعُ ؟
وهم لذوي الآمال كعبة آمل ، ... وعند لقا الأعدا ، رياح زعازعُ ؟
وهم في الوغى آساد كلّ كريهة ، ... وفي السلم بالجدوى غيوث هوامعُ ؟
وايامهم من عهد عاد شهيرة ، ... وفي كل عصرٍ هم بدور طوالعُ .
مناقب لا تحصى لهم ، ومآثر ... شذا عرفها في الهند والصين ضائعُ ؟
دعوا ذمم العلياء بالهمم التي ... اليها جميع العالمين خواضعُ .
وكم شامخ العرنين اضحى مذللا ... لدينا ، وكأس الذلّ والخسف جارعُ :
تروّى القنا في يوم معترك القنا ، ... وبثأرنا في هامة الندّ راكعُ

ألا تعلم الاقوام اني فتى الوغى ، وبدر ، اذا ما اظلم الخطب ، طالعُ !
واني من القوم الكرام ذوي العلى ليوث قراع ما لهم مَن يقارعُ !
وان دافعتهم من زمان صروفه ، يعاضدهم عون من الله دافعُ .
وفي جبهة الايام ، خطت مآثر لنا سطّرتها في الدهور الوقائعُ !
وان نحن فاخرنا بآثار مجدنا ، فليس لنا عند الفخار منازعُ .

حالة التأليف

واما التأليف فانه قلّما كان يتعدّى الجمع بدون نظام ولا تبويب ولا موازنة كما ترى في كتاب « سوق المادن » للشيخ محمد علي عز الدين ، او تلخيص المطوّلات كما يبدو من منظومة الشيخ موسى شراره في اصول الفقه ، او شرح المتون كما نجد في كتاب « مقصد الطالب » في شرح شافية ابن الحاجب للشيخ محمد سليمان الزين .

دور التطوّر والانتقال

لم يكن هنالك من سبيل لحرية الرأي والشعور الشخصي ، او للتغلب على المصطلحات العرفية والاعتبارات الرسمية ، اثناء تحكّم الفوضى ، وتمرّد الحكم الاقطاعي وما شاكله في البلاد العاملية . وقد ساعدت مع التعصب الاعمى روح الارستقراطية الفظّة في كل طبقة من الطبقات . لتؤاخذ اولئك العلماء والادباء اذا ما وقفت افكارهم وقرائحهم عند اساليب المتقدّمين في التفكير او في التعبير عن العواطف التي كادت تستفزهم وتحرّك ألسنتهم في القول ، او اذا اقتصروا في الشعر على المدح والرثاء والتهنئة او ما يشبه ذلك من الاغراض ، أو لم يكن الاستقلال في الرأي والعاطفة ، والتجرّد في النظر والحسّ الذاتي الى ما وراء المأثور من اقوال واساليب وعادات وتقاليد مرعية — يومئذٍ — اشبه بالجنون المطلق ، او بالخروج على كلّ نظام عرفي او شرعي يوجب المزء والسخرية من صاحبه او يعرّضه للخرمان من كل حقّ محترم في الحياة ؟ فاذا اضفنا الى ذلك كله ما كان من تقلّص الثقافة العامة ، واعتزال الطوائف والبلاد بعضها عن بعض بتوجب الفوضى في النظام ، وتضعضع الامن ، وعسر المواصلات ، فهل يعترينا شكّ في ان اوّل باعث على التطوّر والتجديد كان بطيئه

حافزًا للهمم ، ومطلقًا للحسّ والشعور والارادة الذاتية ، هو تضعضع الحكم الاقطاعي ، وتعديل النظام الاداري ، وتيسير المواصلات ، مما مهّد السبيل للحرية والامن ، وفتح الباب على مصراعيه لاختلاط الناس بالناس وللاطلاع على ما وراء المخطوطات من عوالم فكرية ومناحٍ اجتماعية ومظاهر طبيعية . . . حتى صحّ لكل متفائل حُرّ الضمير أن يتمثل بقول الشبيبي :

مضى زمانٌ قولتَ الحق به إثم ، وقول الإثم حقٌّ مفترَضْ :
واليوم هذا قولنا ، فمن مضى ؟ وهذه ألسنتنا ، فمن اعترَضْ ؟

العامل الثاني على التطوّر

ذلك ، في اعتقادي ، هو العامل الاول على التوسع في النظر والتقدم في البحث نحو الجديد ، اما العامل الثاني فقد بدأت طلائعه تنتشر بانتشار الصحف العلمية والادبية « كالمقتطف » و « الهلال » و « المنار » ، وما شاكلها نزعة ولهجة من المؤلفات الجديدة بين ايدي الطلاب والادباء العاملين ، ثم ما زال اثر ذلك يسري ويشتدّ في اعماق القلوب الحالمة بفضل التوسّع في البحث ، والاقبال على المطالعة الى ان اخذت الحاسة للتجدّد والاصلاح بيد الحاج علي الزين مأخذها للعمل على اصدار مجلة « العرفان » وتحصيل امتياز قانوني باسمه من الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩م . ثم تولى تحريرها نجله الاكبر ، الاستاذ الشيخ احمد عارف الزين ، وآزره على ذلك العمل الجليل الاستاذان الكبيران الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر مؤازرة بليغة ، فكان لهذه العوامل المجتمعة ، ولهذه الجهود المتضافرة ، ولهؤلاء الاقطاب النابهين ، مع من تأثر بنزعتهم على نحو من الموافقة كالشيخ أسد الله صفا ، والشيخ محمد علي حوماني ، وعلى نحو من المخالفة كالعلّامة الشيخ عبد الحسين صادق ، والعلّامة السيد عبد الحسين شرف الدين ، اكبر الاثر في تطوّر الحركة الفكرية هذا التطوّر السريع ، وفي ترويج الدعوة الى التجديد في الادب والتحرّر من نير التقليد في التفكير والعمل ، وان ظلّ هؤلاء السادة — بحكم الثقافة والنشأة الاولى ، وبحكم الاعتبارات والظروف الاقليمية المحافظة — محافظين على جانب من اساليب التخيّل والتفكير والتعبير

القديمة لم يستطيعوا ان يتحللوا من اثر المحفوظات ، وحكم العبارات المأثورة في عهد الشباب ، على ما تداولوه في نظمهم ونثرهم من موضوعات جديدة ، وعلى ما استقلوا به من ملاحظات وآراء طريفة . فهم ما انفكوا في التعبير عن افكارهم المستوحاة من صميم الحياة العصرية يتوجهون في تركيز اساليبهم واخيلتهم ، وفي انتزاع تشابيههم وامثلتهم واستعاراتهم ، الى الماضي البعيد اكثر مما يتوجهون في ذلك الى الحاضر القريب .

ما يمتاز به الادب في هذا الدور

اما الشعر فهو كشعر اولئك المخضرمين الذين شبوا على ممارسة القديم من علوم اللغة وآدابها ، ودرجوا على احترام الاوضاع المألوفة والتقاليد المتبعة ، ثم تأثروا بعد ذلك بالجديد من الافكار والمواضيع ، وبالطريف من الاساليب والصور البيانية الخالصة من زخرف البديع وفضول اللفظ . فلذا يبدو عليه روعة القديم باساليبه وقوالبه ، وطرافة الجديد في مواضيعه واغراضه ، يزخر بكل ما يحملنا على احترامه وتقديره من حكمة بالغة ، ورأي سديد ، وقول فصل .

ثم هو ، في المناسبات الوقتية والموضوعات القديمة كالمدح والرثاء والنسيب وما اشبه ذلك ، لا يختلف عن شعر المتقدمين في جزالة اللفظ وفخامة المعنى ، والالتزام بكل ما التزموا به من تمهيد المقدمات ، والتخلص الى الغرض ، ثم الى الخاتمة ، مع مراعاة بعض المعاني والجمل التقليدية ، وفي ديوان « الذخيرة » للشيخ سليمان ظاهر ، وديوان الحوماني النماذج المتعددة لهذا الشعر .

واما في السياسة والوصف وتصوير بعض الظروف والحالات الاجتماعية ، فهو عالمٌ مستقل يمثل الشخصية الادبية والسياسية والفكرية لهذه الطبقة المخضرمة اصدق تمثيل بما يتجلى فيه من رائع البيان ، وسداد المنطق ، وصدق الوصف ، وخصوصاً في قصائد الشيخ سليمان كقصيدته إلى « ولسن » ، وقصيدته في وصف الربيع ، وقصيدته في قلعة بعلبك ، الى كثير من امثالها ، ولئن طغى سلطان الفكر على العاطفة في هذه القصائد كلها ، فذلك لأن الموقف موقف اتزان وتفكير واعتبار لا موقف تدلّه وهيام وبث ، وخصوصاً من الشيوخ ؟

وهذا نموذج من قصيدة الشيخ سليمان في قلعة بعلبك :

وقفتُ ، ولي عن الدنيا ذهولُ ، وما اودى براحلتي الدميلُ ؟
على عجماء صامتة النواحي والمح نطقها الصمتُ الطويل ،
مشت حقب عليها إثر حقب ، وجيلٌ حولها اودى ، وجيلُ ؟
وفي حناياها كم قُلَّ جبترٌ ، وحُطِّم ذابلٌ ، ونبا صقيلُ !
ولكن صابرت نوب الليالي ، ولم يرزح بها عبء ثقيلُ ؟
ولم تذعب بجدتها الرزايا ، ولم يسمج لها وجهٌ جميلُ .
روت خبر الخلود ، وكم عليه بها قد قام منتصباً دليلُ ،
رُماها سافرات عن وجوه ، وما أخفى خباياها سدولُ .
مباني بعلبكٌ ، لأنتِ سرٌّ ، وليس لسرك ابداً وصولُ ؟
اليك الباحثون مشوا ظماء ، وآبوا ، والغليل هو الغليلُ ،
وما بك من ثمائيل ونقش وأعمدة فأدمغةٌ نحيلُ ؟
هياكل ، والقرائح من قديم على جنباتها ابداً تسولُ ؟
معابد للنبوات والجواري وما أفلت ، وتلك لها افولُ .
تودُّ لو ادّنى منها لساني هياكلها على تلفٍ تزولُ ؟
ترى فيها الدوالي قد نتها الى كرمية المثل الاصول .

مواضع الشك والتساؤل

ولعل الشيء الذي اصبح موضعاً للشك والتساؤل هو هذا « الغزل العمري » الذي انتهى اليه فن الحوماني في ديوانه الماثل للطبع « حرًّا » . فانه ، على ما فيه من جزالة وعذوبة لفظية ، لا يشعرك وانت تقرأه ، بشيء سوى الشهوة العابثة التي تذوي لها العيون وتحمرّ الشفاه ، اما ان يشعرك بهذه العاطفة الوجدانية الملتهبة وهذا الفناء في جانب المحبوب ، كما يشعرك صادق الشعر الوجداني في كل لغة وفي كل ادب وخصوصاً الادب العربي ، فهذا مما لا سبيل اليه !

الفلسفة المعقَّدة

ثم اذا كان هناك شيء آخر في هذا الغزل الحديث يعرف الحوماني ، فهو هذه الفلسفة المتكلفة او هذه الفذلكة « المعقَّدة » في تغطية تلك المعاني الغزلية القديمة التي كان يتجنَّى بثلها على القرَّاء ويبديه اعجاباً في ديوانه الاول ، ثم اصبح ، من جرَّاء النقد الصريح ، يتورَّع من اتسامها باسمه ، فان هذه الفذلكة قد جنت على

هذا الغزل جناية كبرى وجهت اكثر مقاطعه جسماً بلا روح او لفظاً بلا معنى ، كما تركت السامع يتيه في ظلمة داجية من الابهام والغموض لا يهتدي الى كنه من مذاهب الشاعر واغراضه ولا يقف على شيء من المنطق المقنع والصور المؤثرة .

التسامح في الوحدة والانسجام

هذا وقبل ان انهي الكلام عن الشعر في هذه الطبقة ارى من الواجب عليَّ ان ألفت النظر الى هذا التسامح من شعرائها بما كان يتسامح به المتقدمون من انسجام الصور الشعرية وتوسيع الفراغ بين ابيات القطعة الواحدة . ثم الى هذا التفريط بما كانوا يفرطون به من وحدة الموضوع والغرض كما يتضح لك من شعر الشيخ سليمان في بعض قصائده ، ومن اغلب شعر الحوماني ، وخصوصاً في قصائده الكبيرة كتلك السينية التي انفق — على قوله — نصف عام في تأليف صورها وتنقيحها ثم نشرها مع سينيتي البحتري وشوقي ، وجعل جائزة سنية للفائز بتحليل القصائد الثلاث والمقارنة بينها .

فان هذا التسامح وهذا التفريط يشوّش على القارئ انتباهه ، ويضلل شعوره ويصرفه عن متابعة القراءة . وليت شعري كيف يستطيع الشاعر ان يؤثر في ذهن القارئ اذا لم يسلك به في مجرى منطقي مستقيم ، ويقوده في سياق معين ، ويرسم امامه وحدة فنية بدون ما تعقيد او غموض او اضطراب . واذا كان لشاعر الفطرة في محضر البداوة والجهل عذره من الاكتفاء بتداعي الافكار والخواطر ووحدة الباعث للذكريات عن وحدة الموضوع والغرض ، فما عذر شاعر القرن العشرين في عصر النور والثقافة والترف العقلي . . . وقد مهدت له المقاييس الفنية والابحاث الادبية الطريق السوي الى مثله الأعلى ؟

نموذج من سينية الحوماني :

رُبَّما اضحج التجارب درسي ... لثلاثين من سِنِيَّ وخمسِ
ولقد تكشف الغطاء ليومي ، ... عن بآتي غدي ، بصيرةُ أمسي
قد لفظت الحياة بشتى جا الحرُّ ... وتثرى منها يدا كل جبسِ
اجا ذا الأديب ، صفّك صفّي ... تحت احداثها ، ودرسك درسي الخ . . .

واذا كنت ممن يحبّ ان يجهد فكره وشعوره بدون ان ينتهي الى معرفة موضوع القصيدة وغرض الشاعر من نظمها ، فاستمرّ على قراءتها من البداية الى النهاية ، وامعن النظر في ضبط السياق ، او في توحيد الفكرة والموضوع ، او في ترتيب الصور والمعاني الشعرية على نسق منطقي متسلسل في مجراه نحو غاية واحدة ، فانك تضطرب وتضطرب اثنا. ذلك بين ان يكون غرض الشاعر من نظمها ان يصور لنا الخطط التي يجب ان نتمشى عليها في بناء المستقبل كما يهيئك مطلع القصيدة هذا :

رُبَّما انضج النحارب درب للثلاثين من سني وعمري
وقد تكشف الغطاء نيوبه ، عن مآتي غدي ، بصيرة امسي

او ان يصور لنا « زهده » في الحياة كما يعدّك البيت الثالث الى استقبال مثل هذه الصور :

قد لفظت الحياة يشقى بها الحرّ ونثرى منها بدا كل جبس

ولكن بينما انت تتوقع منه هذا المذهب او ذاك ، اذا به يقول :

كم اطوف البلاد شرقاً وغرباً فوق ظهرين من سفين وعنس
أيّ جد يغريه بي ، أيّ عزّ تتراءى اليه اية نفس

فتتوسّم بانه سيحدثك عن اسرار عظمته ، وعن الجهود التي بذلها في بناء هذه العظمة. فاذا هو يميل بك الى انتقاص اوضاع الشام والعراق بقوله :

فاذا القول فيها دارُ ملك ، واذا الفعل ثمّ دارةُ فلس ،
لا يغرّنك في الشآم رجالٌ موّهوا بالرياء وجه الفرنسي

ثم بينما تحسبه يريد ان يترسل في المحاسبة ، بعد ان اجهده البحث ، كما يتراءى لك من قوله :

همتي همتي ، فتيتا نواحي في طلاب العلى ، ونفسيّ نفسي.
أحرقوني بعد الممات ، اذا لم يبْنَ من دارة الكواكب رمسي

اذا به يقول بعد ذلك ، وبدون فاصل :

اتحذى إصلاح شعبي ، ولمّا تتخذ كفّاي لعبة المتحسي ،
إنّ لم يسموا ، وهم غير صمّ ؟ ، إنّ لم ينطقوا ، وهم غير خرس ؟

ثم يعود على اثر ذلك الى البثّ والشكوى بمثل قوله :

فاعجبوا للاديب ، وهو اديب ، واردًا في حياته ورد خمس!

وبينا تسمعه يندد بالاصدقاء بمثل قوله :

لا أُلوم الصديق ان يتناسى سالفات العهود ، فالبعد يُنسي

اذا به يطفر لمهاجمة الملوك فيقول :

شرُّ ما في الانام نعمى مليك ، هي في شعبه عمارة بؤس

ثم لا تكاد تصغي الى قوله :

قل لمن حاول الزعامة فينا ، بعدا نائل وشدة بأس!
اخفقت بعدكم شجاعة عمرو ، وندى حاتم ، وحكمة قسّ

حتى تراه يعقب على هذا الكلام بما لا يلتئم معه في مساق او محوى :

أفأستعرض الحياة شُوَيْرِكَ ، وهي لندن ، وغوطة دمشق؟
ما الذي تبلغ البراعة في عدّ انسُبا ، وهي في الانامل خمس!

وهكذا تراه يدور بك ويمضي في تنقلاته من فكرة الى فكرة ، ومن جوّ الى جو بغير مسا علاقة او مناسبة قوية تقتضي الانتقال ، وتحفظ السياق ، وتجدد الغرض ، وتصون الوحدة الفنية ، وتستدرج الحسّ والشعور والفكر الى التأثر بما تأثر به شعرنا ، او الى الاقتناع بما ذهب اليه من غاية وقصد .

ولعلّ الذي طوّح بالشاعر الى هذا الاضطراب والتكلف في اقحام الصور والامثال ، والى هذا التفكك والغموض ، هو ما كان شائعًا في عرف المخضرمين من الامتداح بالتعمّن وطول النفس . فقد كانوا لاجل ذلك يسترسلون في القصيدة الواحدة لإثبات كل ما يسنح لهم من خواطر ، ولعرض كل ما يستطردون اليه من صور او ينتهون اليه من خيال ، من دون ان يحتاطوا في ذلك لما يناسب الغرض والمقام ويطابق الامكان والواقع ، او يحفظ الوحدة ويضبط السياق ، ويرضي الذوق والمثل الاعلى في الفن والجمال .

حالة النثر الفني

واما نثرهم فقد ابتدأوا فيه على طريقة الخوارزمي المسجوعة كما يبدو من بعض رسائلهم القديمة ، ثم تطوّر بتطور الحياة الثقافية ، وتطوّر الافكار

والاذواق الادبية حتى استقرَّ على هذا النمط الخاص الذي يراعى فيه الترتيب والقياس وتحرير العبارة من الحشو والفضول ، ووضعها بطريقة تناسب الغرض والمقام في سهولتها وإيجازها او قوتها وتبسطها ، من غير ما تأنق في الوشي او تدقيق في الصياغة ؛ ذلك بأن اكثر الموضوعات التي مارسوها هي مواضيع علمية لا تقتضيهم باكثر مما يقتضيه البحث العلمي من ترسّل وصفاء . وهو في جملته بليغ الأداء ، واضح القصد ، خالص من شوائب الغرابة والابتذال .

ولعل هذه الخصائص مع ما يكتنفها من صحة اللغة واتساق الالفاظ وشرف العبارة الى هدوء العاطفة ودماثة اللهجة ، اظهر ما يمتاز به نظمهم ونثرهم ، وهـذا نموذج من نثرهم مأخوذ من مقـال « التقيّة » للاستاذ الشيخ احمد رضا :

« فطر المرء على حب المصلحة ودفع المفسدة وتأصلت فيه محبة الذات تهو يجتهد لحفظ كيانه وبقاء ذاته وترقية شأنه . وقد اختلفت اهواء الناس وميولهم فتنحوا احزاباً ومذاهب تضاربت غاياتها واختلفت مقاصدها ثم لعبت السياسة دورها فزادت الشقة بعداً واتسعت مسافة الخلف بين الفرق فكانت تتنازع السلطة والمقام ولكنها العزة للكاثر والحق للقوة ، فسعى كل فريق لإعلاء القوة في حزبه وحرص على الكثرة في قومه ليتال بذلك الزعامة والمقام الأعلى ويستأثر بكرسي السلطة ويتسنى له نشر مبدأه ، واصبح كل ذي غاية يحاول جرّ الناس اليها ليسعف في الوصول اليها حتى اذا علا شأنه واستضعفت القوة المناوئة له عمل على سحقها ليستمرئ عيشه هنيئاً بلا منازع . وحيث رأت الفئة المغلوبة على امرها ضعفها عن المقاومة كتمت امرها واسرت دعوتها واتقت عدوها الى يوم يساعدها الحال فتظهر . هذه هي التقية .

ان التمسك بحبال التكتم للفئة المستضعفة في مكان كثرت عليها فيه العيون وعظمت المراقبة وكبر النكال ، هو امر طبيعي لما تؤيده العادة ويقبله العقل لتحفظ به كيانها حتى تجمع اليها امرها وتصدع يوم ترى مندوحة بما تؤمر .

ان الفئة الثانية اذا استبدت بحر الفئة المغلوبة وجردت سيف سطوتها وسيطرتها من غير انصاف ترجع اليه ولا عدل يكنفها ولم تكن الفئة المغلوبة لمت شعثها ولا تمّ لها تأسيس كيانها ، اذا كان الامر كذلك — وظهرت هذه الفئة المغلوبة في حالها هذه كان ظهورها نسبة الظهور للغالبة عليها وكان ذلك الظهور مسعفاً المستبدة بمعرفة المناوئ فتنفيها قتلاً حتى تأتي على آخر ابنائها الا من اعتصم بجبل التقية منهم وتكون حينئذ تلك الفئة المغلوبة قد هدمت كيانها بيدها وعُدَّ في عرف السياسة ظهورها هذا ثوراً لا تحمد عليه .

لو أعلن أولو الحق حقهم غير متحصنين بجبل التقية حيث يعد عليهم الاستبداد جناحه وليس لهم قوة المغالبة والدفاع ، لرضوا سيف المستبد على رقابهم ودعوه الى قتلهم فاذا اقدام ذهب

حقهم شهيد تصوّرهم حق. بقي اترهم وكان ظلم هذا وان كان نصرة للحق ولكنه من حيث المآل خذلانا له . »

وجهتهم في الاصلاح والتجديد

على انك ترى مما يكتبونه او ينظمونه ان وجهتهم الى الاصلاح السياسي ، والتجدّد الاجتماعي اكثر منها الى الاصلاح والتجدّد الأدبي ، وان المتتبع لآثارهم البيانية لا ينتهي الى مقال ادبي ينتقدون فيه الاساليب العقيمة والاوضاع المزيفة من حيث يوضحون الخطط القويمة ، ويمحصون المقاييس الصحيحة ، التي يجب ان تتبع وتراعى في النظم والنثر ، ما خلا مقالاً قديماً للشيخ سليمان ظاهر في « آداب اللغة العربية »[1] حاول فيه شيئاً من هذا ولكنه لم يتعدَّ فيه مذاهب المتقدمين كابن قتيبة وابن خلدون ، ولا اعتمد على غير النقل والاستشهاد بالاقوال المأثورة ، ثم بعض مقالات لسواه لم يتعرضوا فيها لغير السرقات الشعرية ولما اختل من اوزان وقوافٍ ، او شذ عن القياس من تراكيب او ثقل على السمع من ألفاظ وجمل . اما الفكرة ، واما بقية العناصر الذاتية للادب من عاطفة وخيال ومنطق ، فلا ترى لها في محاولاتهم من الاهتمام ما يوضح معالمها ويصلح دخائلها بنظرة تحليلية او وثبة انتقادية .

عذرهم في التجدّد الادبي

وقد يكون عذرهم في ذلك ان التطور الاجتماعي في كل زمان او مكان يتقدم التطور الادبي ، وان التجدد الادبي في ايام نهضتهم لم يكن له معالم واضحة ومناهج مستقيمة ليتقووا بها على ضعف المقاييس القديمة ، فقد كان طلابه الى عهد قريب في مصر وسورية والعراق يضطربون في تحديد المراد منه أمر في ترخيم الالفاظ وترقيق الاساليب وتنويع الاوزان والقوافي ، او في وصف الرياض والمناظر الطبيعية ، او في تصوير الحوادث السياسية وضرب الامثال

---

١) العرفان ، المجلد الخامس ، سنة ١٩١٣

وفلسفة العبر واستنهاض الامة وانتقاد اوضاعها الاجتماعية ، او في وصف المخترعات العصرية واستبدال المراضيع القديمة بموضوعات جديدة ، الى غير ذلك من مقاصد وافتراضات بعيدة عما يقتضيه التجديد في جوهره وحقيقته ، فان الترخيم والترقيق وتنويع الاوزان والقوافي ، وتغيير المواضيع لا يجدي شيئاً في تطور الادب ، اذا لم تستقل الافكار وتتجرد الأخيلة وتنسجم الصور وتصدق العاطفة والشعور ويخلص البيان بطبيعته من اعتساف الحذلقة والاغراب ، والا كان التطور للتقليد لا للأدب في جوهره وحقيقته .

اثرهم في النهضة العاملية

وعلى كلّ فحسبهم اثرًا وفخرًا أن كانوا اول من ارضى القديم وانصف الجديد ، ثم اول من تشجع وعمل في هذه « البيئة » على تحرير الكتابة من قيود الصناعة اللفظية التي شب عليها الجميع فاحسنوا الاسترسال بها على مقتضى السليقة والطبع بعد ان غلّها السجع وغلب عليها التعمل ، وأن كانت لهم هذه اليد الطولى في تطور الحركة الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية ، والاخذ بيد كل من اخلص لمستقبل امته ونهضة بلاده .

التأليف والمؤلفات في هذا الدور

اما التأليف في هذا الدور فانه قد كثر ، وكثر المتطفلون عليه ، وخصوصاً في المواضيع الدينية والتاريخية ، ولكنه على كل حال لم يزل يضطرب في وضعه ومنطقه بين الاساليب القديمة والحديثة لتقلب المؤلفين الذين انقطعوا في دراستهم للقديم ، واحتذوا في التأليف طريقة من سبقهم على المؤلفين الذين تأثروا بالاساليب الجديدة وساروا على قبس من نورها .

ولا ابالغ اذا قلت ان أنفس كتاب في موضوعه وفائدته واستقصائه يمثل الفئة الاولى خير تمثيل هو كتاب « اعيان الشيعة » للعلّامة السيد محسن الامين ، وقد طبع منه للآن ١١ مجلدًا نهج فيه مؤلفه نهج ابن خلّكان في « وفيات الاعيان » ، بعد ان قدمه بنبذة عن احوال الشيعة وخالص اعتقاداتهم .

واما ما يمثل الفئة الثانية ويتفق مع تطورها الفكري والادبي فان اكثره

الى الآن لم يتهيأ له النشر نتطلع عليه الاطلاع الذي يبيح لنا الحكم عليه ، والموازنة بينه وبين غيره من الكتب ، ولعل انفس ما عرفته من هذه المؤلفات هو :

« متن اللغة »[1] للشيخ احمد رضا ، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، وهو قاموس عام شامل بالغ فيه المؤلف في اختيار المصادر الموثوقة ، وفي ترتيب مواده وفي إضافة كل ما قرره المجمع العلمي في دمشق والمجمع الملكي في مصر من اوضاع جديدة وألفاظ حديثة واصطلاحات مفيدة ، كما انه تأنق في الاشارة الى المعاني العامية بعد ان وفّى المعاني الفصيحة حقها ثم لم يهمل التفرقة بين صيغة اللفظ باللغة الفصحى وبين صيغته في العامية اذا كان مستعملاً بها .

« معجم قرى جبل عامل »[2] للشيخ سليمان ظاهر ، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، وهو عبارة عن تاريخ عام لجبل عامل ، قد رتب على حسب اسماء القرى والحواضر العاملية ، فشرح عند اسم القرية كل ما اتصل بها من حوادث سياسية وادبية وعمرانية ، مع اشارة فصيحة الى الأسر والأعلام الذين نشأوا فيها ثم الى ما خلفوه من اثر صالح . ولعل هذا الاسلوب في جمع أشتات هذا التاريخ المبعثر هو خير اسلوب لضبط اصوله وترتيب فروعه على نسق مستقيم يشوق القارئ الى استقصاء صفحاته .

« الشيعة في التاريخ »[3] للعلامة الشيخ محمد حسين الزين ، وهو بحث ضافٍ نزيه عن فرق الشيعة وعقائدهم ومواقفهم الشهيرة ، مع تراجم رجالهم وشرح وافٍ لاسباب تشيعهم من بدء نشأتهم الى اليوم .

---

١) خط
٢) خط
٣) طبع في صيدا سنة ١٩٣٨

دور التجديد والترف الفني

ويمكننا بكل اطمئنان ان نذهب الى ان هذا الدور قام على أسّ من الثقة باولئك الاقطاب ، وعلى ركن من التقدير لما كانوا ينشرونه هم وزملاؤهم من مؤازري مجلة « العرفان » علمياً وادبياً كالشبيبي ، والشرقي ، والجواهري ، وبدوي الجبل ، فقد كان لهذه الثقة ولهذا التقدير اثر كبير في بعث الناشئة على التعليم الحديث في المدارس العالية ، وفي حمل الشباب المتأدبين على تتبع كل جديد من الكتب المؤلفة والمترجمة ومن الصحف العلمية والادبية ، وعلى التشبع من ابحاث قادة الفكر ومحاولة التجرّد في الرأي والذوق الشخصي من كلّ تقليد ومحاكاة ، كما انه كان لانتشار الصحف اثره الفعّال في تجاوب افكار النابهين وفي تيقّظ شعورهم وتلطيف اذواقهم ، وانطلاق اخيلتهم ، وإذكاء روح النهضة والطموح الى الحياة الحرّة والاستقلال بكل معنى من معانيه الشخصية والاجتماعية .

الطبقات الثلاث

وباستطاعة الباحث اذا توسّع في نظره لهذه الكتل الادبية التي تتألف من هؤلاء الشباب الذين تثقفوا بثقافة عربية خالصة ، وهؤلاء الذين تثقفوا بثقافة غربية مشوبة ، واولئك الذين شبوا على التأثر بهؤلاء وهؤلاء ، باستطاعته ان يقسم ادباء هذا الدور — دور الشباب — إلى طبقات ثلاث .

الطبقة الاولى

١ — طبقة تعتمد في ادبها على الفطرة السليمة ، ثم على ثقافة تخفيفة كل ما تيسره للطالب الطموح دراسة الآداب العربية والعلوم الاسلامية على الطريقة القديمة ، ثم الإلمام بالصحف والكتب الادبية الحديثة التي ألّفها وترجمها ادباء العرب في مصر وسورية والعراق واميركة ، ثم الاتصال بالطبقات الممتازة في طموحها ونظرها الى الحياة . وان في درس آثار النابهين من ادباء هذه الطبقة كالاساتذة حسين مروّة ، هاشم محسن الامين ، صدر الدين شرف الدين ، ما يوضح خصائصها الادبية ويزيد القارئ استبصاراً بمميزات الباقين .

الخصائص الفنية

وقد يكون اظهر ما تمتاز به من خصائص بيانية حرصها على صدق التعبير وانتزاع الصور مما تتأثر به النفس من حياة واجواء ومشاهد ومواضيع ، ثم مبالغتها في توخي الغامض والمبتذل من الألفاظ والتراكيب ، وفي إيثار القوة والرصانة ما وجدت الى ذلك سبيلاً . فهي ، مع تجددها وتأثرها باساليب التفكير الحديثة ، ومعالجتها لكثير من الموضوعات والنواحي الادبية على وجوه لم تكن معروفة عند من تقدمها من الادباء العاملين ، ما برحت تتأنق في صياغة عباراتها اكثر مما تتعمق في نحت معانيها ، وربما كانت في إحكام الاسلوب ابرع منها في إحكام الفكرة واستقصائها من سائر وجوهها شرحاً وتعليلاً ، أللهم ما خلا بعض الافراد في بعض المواضيع التي وقفوا فيها الى الكمال من سائر وجوهه ولذا جاء ادبهم — في ارفع مقاديقه — مطرد السلك ، محكم السبك ، سائغ الصور ، بعيد الغور ، لا يشوبه ضعف ولا قلق ولا اقتعال .

اثرهم في النهضة الادبية

على ان الانصاف يوجب علينا - قبل ان نتجاوز الحكم على ادب هذه الطبقة — ان نصرّح بان افرادها ومن تأثر بنزعتهم من الشباب قد كانوا بدورهم أوسع اثرًا من غيرهم في تطوير الحركة الفكرية وتحوير الاساليب البيانية واشد اقداماً على مجابهة الاوضاع الرجعية ومحاربة العناصر الضارة والتقاليد العقيمة . ذلك بان اكثر ابناء هذه الطبقة قد نشأ في احضان الارستقراطية نشأة رجعية فكان لهم من تاريخهم الارستقراطي ما يزيدهم جرأة وصراحة في اعلان فكرتهم وفي المدافعة عن مبادئهم ، وكان لهم من حرمة أسرهم ومن مكانتها في الاوساط الشعبية ما يصونهم من هوس المغرورين وصلف المفتونين بمنزلتهم الاجتماعية من العلماء والزعماء والادباء الجامدين ، ثم كان لانتقادهم وثورتهم على ما نشأوا عليه من افكار عقيمة وتقاليد رجعية ابلغ الاثر في إفحام المتعصبين للتقاليد البالية وخذلان المحافظين على الاوضاع الرجعية وفي تشجيع الناشئين نشأة جديدة والمتحفزين للحياة الحرّة في هذه البيئة المنكودة الطالع ، أضف الى هذا كله ، ان الظروف بتطوراتها السياسية والاجتماعية والدفاعية جاءت

كلها معبرة لمطامحهم مؤيدة لنزعاتهم .

الطبقة الثانية

٢ — وطبقة قد اخذت عليها الثقافة الحديثة كل باب وكل سبيل حتى اصبحت وليس لها من الايمان بتراثها الادبي ما يحملها على احترام القديم او تأثر وجهته ، وانما غلبها الاكبار للآداب الاوربية من افرنسية وانكليزية ، واستبد بها التأثر باساليبهم في التخيل والتفكير والتعبير الى حد ارشك افرادها — اولا ان يمسكهم التعصب لتاريخهم ولقوميتهم ويروض ألسنتهم الاتصال بالخاصة من اصحاب اللغة الفصحى والاسلوب الرصين — ان يضطرب معه بيانهم وتلتوي اساليبهم وتكون لغتهم اقرب الى اللغات العامية والاعجمية — في ارتباك العبارة ، وابتذال الالفاظ ، وتشويش الصور ، والتباس المعاني — منها الى العربية الفصحى ، وذلك لاضطراب ملكاتهم الادبية وعقائدهم الفنية بين اللغات والثقافات والآداب المختلفة الاساليب والاتجاهات والخصائص .

مذاهبهم الادبية

اما مذهبهم في الحياة الفنية فانه — اذا استثنينا منهم الاستاذ كامل مروة والسيدة وداد سكاكيني — يظهر ميلهم الطبيعي الى رسم شتى العواطف والآ . الادبية وتصوير مختلف الاهواء والازمات النفسية ، ثم يتجلى بقلة اهتمامهم لتطور النزعات القومية ، والمشاكل السياسية ، والاوضاع الاجتماعية التي باتت الشغل الشاغل للجمهور . ونظرة شاملة لآثار اللامعين فيهم كالسيد عبد اللطيف شرارة ، والسيد خليل هنداوي ، والآنسة عزيزة الزين ، تردك واثقاً مطمئناً الى هذا الزعم الذي أزعم .

الخصائص الفنية

ولعلّ اظهر ما تمتاز به هذه الطبقة من خصائص هو الدقة والاناقة في تلوين الصور وتنويع الاخيلة وترويض المعاني الغريبة ، ولهذا تبدو افكارهم واخيلتهم بالجملة اطرف وادقّ واروع من لغتهم وبيانهم ، مما يجر القول بان معانيهم ترين ألفاظهم ، اللهمّ الا من شذّ من الافراد بممارستهم للآثار العربية

البليغة الاساليب الفصيحة اللفظ حتى صحّت لغتهم واعتدلت اساليبهم وسما بيانهم في اروع مظاهره وادق مناحيه عن الابتذال والتعقيد والتنافر ، واصبحوا مناط الامل والرجاء في تقدم النهضة الفكرية وقيادة الناشئة الادبية الى هدفها الاسمى بما اتقنوه من لغات مختلفة وأوتوه من ثقافات متنوعة تساعدهم على التوليد والتطور، وتوفر لهم اسباب الخلق والابداع في كل نوع من انواع الادب. فان الثقافة البسيطة قد اصبحت اليوم لا تستطيع ، في بناء النهضة المنشودة ، ان تنير الطريق لحرية التفكير ، وتمهد السبيل لتجديد الحياة الفنية وتقديم الغذاء الكافي والمثال الصالح للاجيال المقبلة .

الطبقة الثالثة

٣ ــ وطبقة كُلّ ما تعتمد عليه في ادبها هو الفطرة السامية والذوق السليم والاحساس المرهف . واما ثقافتها فهي من الالمام بما يحدث في البيئة ، ويشيع في المجتمعات ، ويُذاع في الصحف السيارة من آراء وافكار ومذاهب ادبية وسياسية واجتماعية . ولئن تهيأ لغيرها من الادباء أن يجددوا باشراق من التعليم العالي ووحي من الثقافة الاوربية فان ابناء هذه الطبقة لم يكن لهم مما يوقظ شعورهم ويلطف اذواقهم ويتوجه بهم هذا الاتجاه الطريف الذي ارتفع بأدبهم الحيّ عن مستوى الآداب الرجعيّة ، غير ظروف بيئتهم وعوامل مجتمعهم وغير ملابساتهم واختياراتهم الخاصة .

ولا نبالغ اذا قلنا ان ألمع شخصيات هذه الطبقة هم السادة الشعراء عبد الحسين عبد الله ، موسى الزين شراره ، نور الدين بدر الدين.

خصائصهم الفنية

ولعلّ اظهر ما يميّز ادبهم من خصائص فنية هو الوضوح، والصدق، والصراحة ، والجاذبية ، وان افكارهم واخيلتهم اشبه بلغتهم واساليبهم البيانية ، فكل منها طبيعي يسير « الدارج » والشائع في النوادي والمجتمعات الخاصة والعامة ، ليس فيها سوى السهولة المألوفة للجميع . فلا هي مبتذلة فتندّ عن ذوق الخاصة ولا هي من العمق بحيث ترتفع عن طرق العامة في الفهم والادراك ، وقد يكون

شعرها بما فيه من نقد صريح وسخرية لاذعة وترسّل جريء في وصف كل ما يتأثرون به من شؤون قومية او نفسيّة — اصدق صورة للحياة الاجتماعية في هذا الجيل وفي هذا العصر وفي هذه البيئة ، ثم اوثق شاهد على تطوّر الشعر وثورة الفكر . ودونك هذه المقطوعة من شعر موسى الزين شراره :

حسبت عاملَ في بلواه منفردًا ، اذ حرّم الشيخُ فيه رؤيةَ الصحفِ ،
حتى سمعت ، وبعض الصحب أكّد لي بأنّ ذلك مأخوذ عن النجفِ ،
عجبت من لجنة الآثار كيف سمت عن عرض اشياخنا في معرض التحفِ !

اتحاد العناصر الذاتية في الشعر والنثر

هذا ونظرًا لأن الشعر والنثر الفني لا يختلفان في رأي الاكثرية من ادباء هذا الدور إلّا بالوزن والقافية ، واما باقي العناصر الذاتية للأدب من عاطفة وخيال ومنطق فانها انما تتفاوت — قلة وكثرة وقوة وضعفاً في الشعر والنثر — بتفاوت الموضوعات والمناسبات والحالات النفسية التي تسيطر على الاديب اثناء العمل الفني لا بتفاوت نوع الكلام بين الشعر والنثر ، ونظرًا لذلك اجملنا القول عن خصائص الشعر والنثر عند الكلام على ادبهم واكتفينا من الشواهد بالمميزات الفنية له بنوع واحد من الشعر والنثر .

التأليف في هذا الدور

اما التأليف في هذا الدور فانه إلى الآن لم يعدُ ان يكون من هذه الكتب المجموعة من المقالات المختلفة الموضوع والغرض باختلاف الظروف والحالات التي اوحت بها وأملتها على قلم الكاتب ، او من هذه الدواوين المؤلفة من القصائد والمقطعات الشعرية . وهذا النوع من التأليف لا يختلف في جملته عن ادب القصيدة والمقال وقد فصلنا القول فيه .

اما التأليف بمعناه الخاص وكما يتطلبه الذوق الاوستقراطي المترف في منطقه وتفكيره فانه — اذا استثنينا كتاب « نحن في افريقيا » للاستاذ مردّه ، وبعض الكتب المدرسية ككتاب « الانشاء بالمثل » للاستاذ كمال بيضاوي — الى الآن لم تتهيأ له اسبابه وموءلاته بين ادباء هذا الدور وشبابه المثقف ، او

انه لم يصلنا منه ما يمثل النماذج العالية التي تشجعنا على اجهاد الفكر في الدرس والموازنة وتخولنا اطلاق الحكم النهائي .

القصة في الادب العاملي

ما انفك العامليون الى الامس القريب يعتبرون القصة ملهاة عامية او نوعاً من الادب المنحطّ لا يليق بالطبقة الارستقراطية في علمها وادبها ان تعنى فيه عنايتها في القصائد والمقالات ، ولئن هم مارسوا فنّ المقامات – وهو مما يمتّ الى القصص باقرب الاسباب – فلأن لغته غير لغة القصص ولان غرضهم منه غير الغرض منها .

بيد ان تيّار النهضة الادبية في هذا العصر دفع بالطامحين من شبابنا وخصوصاً هؤلاء المتحمسين للآداب الاوربية ، وهؤلاء الذين تأثروا بهذا الجوّ القصصي الممتع الذي خلقته جريدة « المكشوف» البيروتية ، وجريدة « الهاتف » النجفية ، ومجلة « الرواية » المصرية ، الى محاولات جريئة موفقة في عالم القصص كان لها وقعها في النفوس واثرها في توجيه الانظار نحو القصص وفي اقبال المتأدبين على قراءته وممارسته حتى تطوّر تطوراً محسوساً واصبح له بينهم مذاهب مختلفة واساليب متفاوتة .

مآخذ القصص العاملي

ولكنه مهما بالغنا في شأن هذا التطوّر فان القصص العاملي الى الآن لم يتسنّ له ان يتحرّر من شوائب التقليد والمحاكاة ولم يتهيأ لهواته من المرونة والاطلاع او التخصص الثقافي ما يكفي لابرازه فنّاً كاملاً له متخصصاته ومميزاته الفنية بين القصص العربي المعاصر ، وله اثره ومنزلته المرموقة في نفوس الجمهور .

ولذا ترى اكثر قصصهم لم تسلم مما أُخذ به بعض القصص اللبناني ، من ضعف اللون المحلي ، او ضعف العقد ، او الحشر .

فان اللون المحلي الذي يزيد في اطمئنان القارئ ويضاعف تأثره لا تكاد تشعر به ، وانت تقرأ بعض هذه القصص العاملية ، اذ لا ترى اثراً بيناً لهذه الخصائص الشرقية ولهذه التقاليد والآداب العربية التي تلامس حياتنا اليومية وتتصل بكل

ما تباشره من قول وفعل ، وانك تخال نفسك في اثناء قراءتها انك في بيئة غريبة عما نشأت فيه من اجواء وعادات واعتبارات فلا هي غربية خالصة ولا هي شرقية صريحة .

وكذلك العقدة المناسبة المعقولة التي تبرز الفكرة وتزيد في التشويق والتلذذ وتتأنق في تشخيص ابطال القصة ، فانها الى الآن قلما تتوفر الا للقليل من القصص العاملية .

ثم ان حرص بعض كتابنا على الاستطراد لوصف كل ما يمرون به من حالات ومناظر واشخاص ، كثيراً ما جرّهم الى فضول الحديث وحشو الصور النابية عن كل ما يقتضيه سياق القصة من تسلسل الحوار واتساق الوصف وايجاز القول مما يضلل ذهن القارئ ويخمد حميته .

موضوعات القصص العاملي

اما موضوعات قصصهم فاكثر ما نراها منتزعة من صميم حياتهم الشخصية، والاجتماعية ، والثقافية ، والفنية ، كما ترى في قصة « ايم » لهاشم محسن الامين وقصة « الاعمى » لهاشم حسن الامين ، وقصة « بين الحماة والكنة » لوداد سكاكيني ، وقصة « اديب » لحسين مروة ، وقصة « القلم الوديع » لمحمد شرارة ، وقصة « ضباب » لعبد اللطيف شرارة . وقصة « ابي » لصدر الدين شرف الدين وهذه القصص او المقالات القصصية هي من ابلغ ما قرأته لهم في هذا الباب .

اغراض القصص العاملي

واما اغراضهم وغاياتهم من ذلك فهي قلما تتعدى تصوير الجمال الفني ترويحاً للنفس من اعباء الشعور المكبوت والاحساس المضن . بيد انهم حين يتوفقون في تصوير ذلك ويحكمون فنّ قصصهم يصلون الى ما قد يرمي اليه غيرهم من الاغراض الاجتماعية والغايات الانسانية ، لأنهم قلما يتأثرون بموضوع قصصي إلا لأنه شاذ نآله عن المثل العليا او موافق لها ، ومتى هم برعوا في تصوير هذا الشاذ بشذوذه او افلحوا في رسم هذا الموافق للمثل العليا بكل ما له من مشخصات مغرية فقد تمكنوا من ابلاغ رسالتهم في تقريب هذا المثل من

نفوس القراء او تبعيده.

واما الاسلوب فهو لا يختلف عن اسلوب الكاتب في مقالاته ، الّا في التزام السهولة والرقة في ألفاظه ومراعاة السلاسة والبساطة في تراكيبه.

الاعتداد بالجيل المقبل

ذلك هو رأيي الخاص في ادب هذه الطبقات الثلاث ، وهذه هي الصورة الموجزة لخصائص الادب في هذا الدور الاخير ، فاذا لم يتأكد منها ان ادباء الشباب قد ادّوا رسالتهم ووصلوا الى المرتبة التي يطمحون اليها او الى الغاية التي يتمنونها على غيرهم من الادباء حين يفندون رأيه وينتقدون ادبه ، فعذرهم في ذلك ايضاً ان التطوّر الاجتماعي والثقافي في بيآتهم التي شبوا فيها وتأثروا بآدابها وتقاليدها واجوائها ، لم يبلغ بعد مداه ولم يصل من الحرية واليسر والرقي الى الحد الذي يؤهل الناهضين من ابنائه ويساعد الطامحين من شبابه على تحقيق اقصى مطامحهم في العلم والادب والحياة الحرّة ، وعساهم — بما يبدو من اقبال الناشئة على التعليم العالي ومن تنافس الزعماء والعلماء والادباء والشباب المثقف في انشاء المدارس الحديثة ، وفتح الغرف المجانية للمطالعة ، ومن تعاون الطبقات الشعبية والجمعيات المنظمة على نشر العلم وتعميم الاصلاح في الحواضر والقرى ، ثم توالي الهجرات العلمية والاقتصادية الى اميركة واوربة ، والعراق وافريقية ، وتأثر المهاجرين بما يتصلون به هناك من بيئات متمدنة ومجتمعات راقية وحياة حرّة تشعرهم بقيمة الحرية وتحفزهم للعلم والعمل الصالح والسير قدماً الى الأمام — عساهم بمثل هذه العوامل والاسباب يبلغون اقصى أمانيهم وقصارى غاياتهم من السموّ والتقدم على يد الجيل المقبل . فان مثل هذه المساعي الحميدة وهذه الجهود الصالحة التي اصبحت محلّا للتنافس والمسابقة من الزعماء والعلماء والادباء والمهاجرين . وان كانت ضئيلة فاترة بالنسبة لما يتطلبه هذا العصر وهذه البيئة من عوامل الاصلاح ووسائل النهضة وحرارة المسعى . . . لأجلّ من ان تذهب هدراً ولا يجري مفعولها في مثل هذا الجيل الناشئ الذي يتوقد ذكاء ويلتهب غيرة وحماسة لكل جميل صالح ولكل جديد نافع في الحياة.